أفكار جمال الدين الأفغانى السياسية

جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) هو « حكيم الشرق » الذى كانت له آثار بعيدة المدى فى العالم الإسلامى . وليس من المبالغة القول بأن حركة التجديد التى انبعثت فى العالم الإسلامى ، وأن حركات التحرر من الظلم والاستعمار فى هذا العالم الإسلامى قد استلهمت جميعاً أفكاره الثورية المجددة ليس فقط فى الهند وإيران وأفغانستان ، بل أيضاً فى مصر وتركيا والسودان والتركستان .

وليس معنى هذا أن دعوته قد امتدت إلى جماهير الشعب فى تلك البقاع ؛ بل إنها اقتصرت إلى حد بعيد على تلك الفئة القليلة الموجهة فى كل زمان ومكان ، وهى الفئة التى تضم الصفوة المثقفة وطليعة المتحررين من قيود التقليد ورواسب الماضى بما تحمل من حقوق مكتسبة طالما ارتكزت عليها قوى الرجعية والانتفاع التى تحاول — عن وعى أو عن غير وعى — أن تعرقل التطور الطبيعى للناس والأشياء . ولا تزال هذه الرواسب ، بفعل الجهل والوخم ، تفعل فعلها فى العالم الإسلامى برغم اتساع حركة التعليم وتنبه الوعى الجماهيرى . لهذا كان التطور الطبيعى فى العالم الإسلامى ثقيل الخطى مبلبل الاتجاه وبخاصة بعد زحف المؤثرات الغربية التى تركت ردود أفعال متفاوتة لدى الناس تبعاً لاختلاف مستوياتهم الفكرية ومصالحهم الذاتية . ولا يزال المسلمون فى مجموعهم متخلفين فى المجالات الروحية والذهنية ، وأن يكونوا قد اصطنعوا من حيث لا يدرون من الأساليب المادية ما هو وليد أجيال من التقدم العلمى فى الغرب . لهذا كان الصراع بين القديم والحديث قصة متكررة فى تاريخ العالم الإسلامى الحديث .

اصطدم جمال الدين بأنصار القديم ، اصطدامه بالاستعمار ؛ وناله من الرجعية

والاستعماريين الأذى فى كل قطر إسلامى حل به . ولـكنه كان من ثابتى الإيمان ؛ فوقف كالصخرة : لا يهادن ولا يتراجع . وكان حيثما حل بركاناً صاخباً ، خالقاً للثورة أو للنهضـة ، يحس بالتجاوب مع الجيـل الصاعد المتفتح ، ويتجنب الميئوس من إصلاحهم . وكان بؤرة جذب لمن حركتهم الأشجان فشعروا بضرورة التجديد والإيجابية . وحياته مرتبطة أشد الارتباط بأفكاره ، شأنه فى ذلك شأن أولئك الرواد الذين يجعلون من حياتهم صورة مجسمة لأفـكارهم . ولئن كنا سنحاول الربط بين حياة جمال الدين وبعض أفكاره ، فسنفرد لهذه الأفكار بشمولها مجالا خاصاً فى الحيز الأخير من هذا البحث . وإذا كان الإنسان فى معظم الأحوال رد فعل لعصره ، فإنه يجدر بنا قبل أن نتصدى لهذه الدراسة أن نلمح إلى القوى التى أحاطت بالشرق وبالغرب فى حياة جمال الدين .

شهدت هـذه الفترة النهايات المنطقية لركود العالم القديم حين داهمته القوى التى حركت أوروبا منذ عصر النهضـة : تفوقت أوروبا علمياً ومادياً وكشفت العالم الجديد وطرق المحيطات واتجهت إلى الاستعمار ، ونجحت فى تحقيق أهدافها إن لم يكن بالاحتلال السافر فبفرض النفوذ والتدخل فى الشئون الداخلية للبلدان الأخرى . كما شهدت أوروبا فى الوقت نفسه موجة من الشعور القومى ونمو الوعى الجماهيرى الذى طالب بالحرية ثم بالحياة الدستورية والاشتراكيـة . ولعبت الصحافة دوراً حيوياً فى هـذه التطورات الجديدة ؛ وكان لجمال الدين فضل تنشيطها وربطها بالقضايا العامة فى بعض البلدان التى حل بها ، وبخاصة فى مصر .

أدرك خطر الاستعمار منذ نعومة أظفاره ، ولمس أساليب تغلغله فى البلدان الإسلامية ودرس الأسباب التى هيأت له النجاح . ورغم أنه من أشد من عرفناهم عداء للاستعمار ، فإنه لم يغمض عينيه عن تفوق الغرب — لهذا كان يميز بين الغرب ومقوماته وبين من برزوا من ثناياه من دعاة الفتح والاستعمار . ثم نجده ينكص مع الناكصين إلى دورات عز الشرق الإسلامى يستلهمها القوة ويوحى

بها إلى من تناساها ؛ مشدداً النكير على الحكام الأذلاء والشعوب المستضعفة ، ومهوناً من شأن القوة المادية التى انثالت من الغرب ، ومؤكداً لسحر القوة الروحية ووحدة المشاعر ، منادياً بالتآخى بين الأديان وبالعالمية والاشتراكية والدستور والعدل المطلق . وهو وإن يكن من رواد القومية فى الشرق باعتبارها وسيلة لرد العدوان الغربى ، ومع أنه لم يهن لحظة فى التنديد بالاستعمار ، فإنه من أولئك المفكرين الكبار الذين يخترقون الحواجز ويؤمنون بوحدة الوجود البشرى والكونى فى إطار القوة الشاملة التى تربط الأجزاء المتفرقة وتعلو على الوجود والعدم .

*

هنالك اختلاف حول الوطن الأصلى لجمال الدين . فالشائع أنه من مواليد أفغانستان وأنه نسل أسرة تنتسب إلى الحسين بن على . ولكن هناك رأياً آخر يقطع بأنه إيرانى المولد ، وأنه أخفى هذه الحقيقة عامداً حتى يكون انتماؤه إلى أفغانستان السنية ، لا إلى إيران الشيعية ، أدعى إلى تحقيق رسالته الدينية فى البلدان التى باشر فيها نشاطه(١) .

وعلى أى حال فقد انخرط جمال الدين فى سلك التعليم التقليدى . ولما ظهرت عليه مخايل النجابة أبدى والده — وكان معلماً — اهتماما بتثقيفه واصطحابه إلى خيرة المعلمين : فحفظ القرآن وتعلم العربية إلى جانب لغته الأصلية ، ثم درس العلوم الإسلامية المختلفة ، وإن يكن قد توسع فى الفلسفة الإسلامية والتصوف ، ثم درس الرياضة على الطريقة العصرية . وطيلة حياته نجده واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية ، وبخاصة الفلسفة . وكان قارئاً نهما : فقد عرف فى شبابه كثيراً من المؤلفات القديمة فى الفارسية والعربية ، وكان على إلمام واسع بالكتب

---

(١) انظر جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى ، ص ٨ — ٢٩ . أيضاً تقديم مصطفى عبد الرازق لمجموعة العروة الوثقى التى جمعها محمد جمال ، ص ٢ . ولا تزال حياة جمال الدين بحاجة إلى مزيد من الدراسة أنظر : Smith, Islam in Modern History, pp. 54 ff.

الحديثة المترجمة إلى اللغات الشرقية ، وكذلك بالكتب الموضوعة فى آداب الأمم وفلسفة أخلاقها(١) . وإذا أضفنا إلى ذلك اللغات التى ألم بها فى مختلف أطوار حياته ، أدركنا سر إحاطته المباشرة بأحوال أهم دول العالم فى زمانه ، وما أضفاه عليه ذلك من تعميق للمفهومات التى تصدى لنشرها:فإلى جانب اللغات الأفغانية والعربية والفارسية والتركية والفرنسية التى أتقنها جيداً ، كان على إلمام باللغتين الإنجليزية والروسية.هذا إلى أسفاره فى مختلف بلاد الشرق والغرب : فإلى جانب أفغانستان وإيران والهند ، زار مصر وشبه الجزيرة العربية والعراق وتركيا وروسيا وانجلترا وفرنسا . ثم إنه كرس حياته للعلم والعمل السياسى ؛ ومن ثم إيثاره تلك العزوبة الشاقة التى عاشها أمثال أبى العلاء المعرى ونادى بها أفلاطون فى جمهوريته بالنسبة إلى ذوى المهام الفكرية والسياسية .

من أولى الرحلات الهامة بالنسبة إلى جمال الدين الرحلة التى قام بها إلى شبه الجزيرة العربية وفيها الحجاز مهبط الرسالة الإسلامية.ولقد أتم رحلته هناك فى عام ١٨٥٧ وهو فى الثامنة عشرة ؛ وحين رجع إلى أفغانستان أمكنه أن يصل إلى مكانة بارزة فى خدمة اثنين من أمرائها ،وأبدى مهارة فى شئون الحرب والسياسة ، واصطدم بالاستعمار الانجليزى القائم فى الهند والممتد إلى أفغانستان بشكل أو آخر .

وترتب على هذا الاصطدام وانهزام الأمير الذى كان يواليه خروجه فى عام ١٨٦٩ من أفغانستان إلى الهند التى كانت تموج بالثورة ضد الإنجليز . ولما كانت السلطات الإنجليزية تخشى أن يتصل به الثوار ، فإنها عملت على إخراجه من الهند ؛ فرجع إلى أفغانستان التى ما لبث أن أقصى عنها للمرة الثانية ، فقصد الهند حيث شددت عليه الرقابة . ومع ذلك فقد أصبح محطاً للأنظار : إذ هرع إليه أكابر العلماء الهنود وراجاتها ، ولهذا أخرج من الهند للمرة الثانية . وقبل

---

(١) محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين ، ص ٧٦ .

أن يبارحها ندد بضعف السلطات الإنجليزية التى تخشى زائراً أعزل مثله ، وأثار حمية من كانوا يحيطون به من الهنود ، مظهراً لهم وفرة أعدادهم فى مقارنتها بأعداد الحاميات الإنجليزية .

وبعد خروجه من الهند مر بمصر(١٨٧٠) وأقام بها أربعين يوماً تردد أثناءها على الأزهر وخالط كثيراً من طلاب العلم الشوام وألقى عليهم بعض المحاضرات فى مسكنه . ثم قصد إلى الآستانة حيث اتصل برجال العلم والأدب ومال إليه بعض الوزراء والأمراء ، وما لبث أن عين عضواً بمجلس المعارف برعاية عالى باشا الصدر الأعظم . وكان عالى من المؤمنين بالإصلاح وتقوية الإمبراطورية العثمانية . امتاز بالأمانة والصراحة والذكاء والجد ، وكان على دراية واسعة ، ذا أفكار عميقة أتت عن طول خبرة وتجربة . وكان يعتقد أن إحياء الإمبراطورية وإنعاشها لا يتأتيان إلا بالمعونة الأوروبية ، على ألا يصحبها تدخل فى شئون الدولة الداخلية ؛ كما حرص على تأكيد سلطة الباب العالى فى أطراف الإمبراطورية حتى يمكنها أن تقف كتلة متماسكة أمام الضغط الأوربى المتزايد . وكل هذا مما يفسر تشجيعه لجمال الدين الذى أوصى بتعميم التعليم . ولكن تآمر عليه شيخ الإسلام ؛ فخرج من الآستانة قاصداً مصر .

وقد أجرت الحكومة المصرية على جمال الدين راتباً سنوياً ،فاستقر به المقام بالقاهرة لفترة تزيد على ثمانى سنوات (مارس ١٨٧١ — أغسطس ١٨٧٩) لعلها أخصب سنى حياته . وجد بها تجاوباً مع القوى الجديدة التى انبعثت فى البلاد من ثنايا الأحداث التى ألمت بها وبالشرق ، ووجد بها الجيل الجديد المتفتح لأفكاره ، فسما على ذاته وبذر بذور الثورة الوطنية ورعى جيلا ثورياً متحرراً تدين له مصر بالكثير من تطورها الحديث والمعاصر .

والذى شحذ هذا التجاوب الثورى بين جمال الدين ومريديه ما كان من أمر الأزمة المالية المترتبة على ديون سعيد وإسماعيل ، وما أدت إليه من تدخل الدول

فى شئون مصر الداخلية منذ أوائل عام ١٨٧٨. كذلك نجحت الحركة الدستورية فى تركيا ، وهى الحركة التى غذاها مدحت باشا ؛ فخلع السلطان عبد العزيز وتولى السلطان عبد الحميد الذى أعلن الدستور ؛ وكان لذلك رنة فرح فى شتى ربوع الإمبراطورية العثمانية . ولـكن سرعان ما تنكر السلطان عبد الحميد للحركة الدستورية ؛ فسحب الدستور ، وأجل اجتماع المجلس النيابى إلى أجل غير مسمى . وما لبثت أن نشبت الحرب الروسية — التركية فى عام ١٨٧٧، فحركت الأشجان فى شتى بقاع العالم الإسلامى ؛ إذ تعلق بها مصير الخلافة والملك الإسلامى ، خاصة وقد توقع الـكثيرون قرب انهيار الإمبراطورية العثمانية . وأخذت موجة النقد فى مصر وتركيا تندد بالحـكم المطلق سبب هذه الـكوارث وتمهد الطريق لعهد جديد. لهذا أثمرت دعوة جمال الدين فى مصر لأنها أتت فى وقتها ، خاصة وقد تحالف الخديو إسماعيل مع المد الوطنى الصاعد فى أواخر عهده ضد التدخل الأجنبى ، فأعطى القوى الجديدة التى تزعمها جمال الدين مجالا للتعبير عن نفسها .

لم يحاضر جمال الدين فى الأزهر خلال إقامته فى مصر ، وإنما كان أغلب لقائه وتدريسه لمن التفوا حوله فى منزله وفى المقـاهى والمتنزهات العامة « حيث كان سامره مجلس علم وحكمة وأدب وسياسة » . كان يتصل بالأمراء وذوى المـكانة والعلم والأدب . كما التف حوله خيرة الطلاب من مجاورى الأزهر وبعض علمائه . وقد صقل استعدادات واتجاهات كل هؤلاء ، وأحدث تحولا فى مجرى الأدب ومفهومه لديهم؛ فبدلا من تأثره بمخلفات الاستبداد والإقطاع و« الصنعة »: من مدح وهجاء وفخر وتزلف و « نوادر » ؛ وبدلا من كونه عرضا للبراعـة البلاغية من سجع وجناس وطباق ، أصبح فى خدمة الشعب : يدافع عن حقه ويهاجم من اعتدى عليه أيا كان ؛ « يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم على أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم ، فليست قوته إلا بهم ولا غناه إلا منهم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فحرج على الناس بأدب

جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم ، وينشد الحرية ويخلع العبودية ، ويفيض فى حقوق الناس وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأديب مشرفا على الأمراء لا سائلا يمد يده للأغنياء»(١) .

دعوةهذا شأنها لا بد أن تثير اسماعيل ذا النزعات الاستبدادية . كان اسماعيل حقيقة قد شجع الناشرين والصحفيين السوريين على الإقامة بمصر والعمل فيها . وكان يغدق عليهم فى البداية ؛ ولكن الأزمة المالية أفقدته السيطرة التى سبق له أن باشرها على الصحف عن طريق المنح والإعانات . ولما كان معظم هؤلاء الناشرين السوريين قد درسوا بالجامعة الأمريكية ببيروت حيث تلقنوا أسس الحرية والحقوق الإنسانية ، لم يكن من السهل عليهم أن يسكتوا عن الظلم والإرهاق اللذين تعرض لهما الشعب المصرى فى أواخر حكم اسماعيل . ولم يكن اسماعيل ذاته يستطيع أن ينال منهم بسبب تمتعهم بالرعوية الفرنسية وبالتالى بالحماية التى كانت تخلعها عليهم هذه الصفة طبقا للامتيازات الأجنبية .

ولم يكن جمال الدين ومريدوه يتمتعون بمثل هذه الحماية ؛ ومن ثم لجوؤهم إلى المحافل الماسونية ذات النشاط السرى والمتمتعة بالرعاية والحماية الأجنبيتين . وهناك بعض الاختلاف(٢) حول المحفل الأول الذى انتسب إليه : هل هو المحفل الإيطالى أم الإسكتلندى ؟ كما أن ثمة خلافا آخر حول المحفل الذى خرج منه الحزب الوطنى : هل هو الشرق الفرنسى أو هو مزيج من « الشرق » و « كوكب الشرق » التابع للمحفل الأكبر فى انجلترا وراعيه البرنس أوف ويلز ؟ أم هو محفل وطنى مستقل عن هذا وذاك ؟ على أى حال نظم جمال الدين العمل داخل المحفل ، فضم إليه نبهاء طلابه ومريديه : فمنهم من يعمل بالصحافة ، ومنهم بعض ضباط

---

(١) أحمد أمين. زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ٦٦ .

(٢) زعماء الاصلاح ، و ص ٧٢ــتقديم مصطفى عبد الرازق للعروة الوثقى ، ص ٦ــ٧ ؛
Sabry. La Genèse de l'Esprit National Egyptien, 142-3

الجيش علماء الأزهر وأعضاء مجلس شورى النواب ، ومنهم ولى العهد محمد توفيق وبعض كبار الموظفين .

كان جمال الدين يمرن الناشئة على الخطابة ويلهمهم مبادئه ويعدهم للعمل ويوقظ فيهم عواطف الوطنية ، ويعلمهم الشغف بحياة الحرية وبالنظم الدستورية . وقد حاول البعض فى داخل المحفل لفت نظره إلى أن الماسونيـة لا دخل لها فى السياسة ، فكان رده على ذلك : « أول ما شوقنى للعمل فى بناية الأحرار عنوان كبير خطير : حرية ؛ مساواة ؛ إخاء — غرضه منفمة الإنسان — سعى وراء دك صروح الظلم — تشييد معالم العدل المطلق — فحصل لى من كل هذا وصف للماسونية وهو : همة للعمل ، وعزة نفس ، وشمم ، واحتقار الحياة فى سبيل مقاومة من ظلم » ، و « إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الـكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة »(١) .

آمن إذاً بجعل المحفل الماسونى مطية للعمل السياسى : فهو ينظم شعباً مختلفة تختص كل منها بوزارة من الوزارات أو بمصلحة من المصالح ؛ تدرس شئونها وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الإصلاح فيها ، وتتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح . وهو يحبب الـكتابة إلى من يجد فيه استعداداً لهـا ، ويرسم له خطتها ويوحى بالمعانى التى يكتبها ، ويشجع على إنشـاء الصحف يكتب هو فيها باسم مستعار ويستكتب فيها من يتوسم فيـه للقدرة . شجع أديب إسحاق(٢) ، بعد أن اتصل به اتصالا وثيقاً وتتلمذ له طويلا ، على

---

(١) خاطرات جمال الدين ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) كان حتى وفاته ينزل أديب إسحاق مكانة خاصة فى نفسه ويقول عنه : « كان طراز العرب وزهرة الأدب ؛ قضى نحبه فى شرخ الشبوبة وعنفوان الفتوة وترك لنا قلوباً آسفة وشجوناً فائضة » نفس المرجع ، هامش ٤٦ — ٤٧.

أن ينشىء جريدة « مصر » التى أخذت تشرح للناس مبادىء الوطنية وتدعو إلى الحرية ، وكان يرسم خطتها ويكتب بنفسه بعض مقالاتها . كما شجعه على إنشاء صحيفة يوميـة اسمها « التجارة » . وكان يستكتب لهاتين الصحيفتين محمد عبده وغيره . وقد كتب هو بنفسه مقالين أحدهما فى الحـكومات الشرقيـة وأنواعها ، والثانى سماه « روح البيـان فى الإنجليز والأفغان » . كما شجع محمد عبده و يعقوب صنوع على إصدار جريدة « أبو نضارة » التى رأس صنوع تحريرها وكانت أولى الصحف العربيـة التى تـكتب بالعامية ؛ وقد امتازت بالسخرية والدعابة وانتقدت إسماعيل مما أدى إلى مصادرتها ولما يصدر منها سوى خمسة عشر عدداً . كما شجع ميخائيل عبد السيد على إنشاء جريدة « الوطن » التى كانت جريدة سياسية وأدبية تنطق بلسان الوطنيين قبل الاحتلال و بعده .

لعبت هذه الصحف دوراً حاسماً فى مقاومة التدخل الأجنبى ، وكانت تنطق بلسان الحركة الوطنية — الدستورية . ولـكن انجلترا وفرنسـا خلعتا إسماعيل وولتا توفيق (يونية ١٨٧٩) . ورحب جمال الدين ، كما رحب الوطنيون ، بخلع إسماعيل ، واستبشروا خيراً بتولية توفيق — بل إن جمال الدين ذاته طاف ببعض القنصليات الأجنبية يؤكد لها ترحيب المصريين بتولية توفيق وأن بمصر حزباً وطنياً إصلاحياً . وذكر جمال الدين توفيقاً بوعوده الخاصة بخلق برلمـان يتمتع بسلطات كاملة . ولـكن توفيقاً الذى كان يدين بعرشه للتدخل الأجنبى تنكر لوعوده وطرد جمال الدين بناء على طلب قنصل انجلترا . وخرج جمال الدين حقيقة من مصر ، ولـكن بعد أن بذر بها بذور الثورة التى لم تلبث أن شبت بها بعد خروجه بعامين .

أقام بعد خروجه من مصر فى حيدر أباد . حتى إذا ما شبت الثورة فى مصر دعى من حيدر أباد إلى كلـكتا ، وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتى أخمدت الثورة . حينئذ سمح له بترك الهند ، فقصد إلى لندن وأقام بها أياما قليلة ، ثم انتقل

إلى باريس منذ أوائل عام ١٨٨٣ وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات لحقه بها فى أثنائها الشيخ محمد عبده. وهنالك عمل جمال الدين على إنشاء جريدة عربية ترسل إلى العالم الإسلامى فتفهمه واجباته وتشعل وطنيته — لجمال الدين فيها الأفكار والمعانى، ولمحمد عبده التحرير والصياغة؛ كما كان ميرزا باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقى . ووراء المجلة جمعية سرية منبثة فى جميع الأقطار الإسلامية ، وضع لها يمين يقسمها من يدخل فيها ويتعهد بأن يبذل ما فى وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية و إنزالها منزلة البنوة والأبوة الصحيحتين ،وألا يقدم إلا ما قدمه الدين وألا يؤخر إلا ما يؤخره الدين ، ولا يسعى قدماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلا وقدرة،وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع(١).

حينئذ كانت مصر قد وقعت فى براثن الاستعمار البريطانى ، وكانت الثورة قد شبت فى السودان منكلة بالقوات الإنجليزية التى بعثت لإخمادها ، كما ازداد التغلغل الاستعمارى فى الأقطار الشرقية ، وعلى حد قول العروة الوثقى(٢) : « بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته . . . نعم إنهم (أى المستعمرين) غرسوا غرساً ، إلا أنهم يجنون ، أو هم الآن يجنون منه ، حنظلا ويطعمون منه زقوماً ؛ومن ثم صدرت فكرة فى أغلب أنحاء المشرق داعية إلى توحيد الجهود »؛ فالكل « يطلب خلاصاً ويبتغى نجاحاً وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل فكره على درجته من الجودة . .. وأن العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها العمل بحقوق الكل(٣) » . النذير الأكبر لكل ذلك هو مصير مصر

---

(١) زعماء الإصلاح ، ص ٨٠ .

(٢) صدر العدد الأول من العروة الوثقى فى ١٣ مارس ١٨٨٤ ، وصدر آخر أعدادها فى ١٧ أكتوبر ١٨٨٤ . وبلغ ما نشر منها ثمانية عشر عدداً .

(٣) العروة الوثقى ، ص ٢٨ — ٣٠ .

« باب الحرمين » على حد قول جمال الدين : « فإن كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية . إن كان الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين ؛ فإن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوى من روابط الجنسية ، وما دام القرآن يتلى عليهم ويعمل بأحكامه — وفى آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه — فلن يستطيع الدهر أن يذلهم . إن الفجيعة بمصر حركت أشجاناً كانت كامنة ، وجددت أحزاناً لم تكن فى الحسبان . وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم . وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يكون التنفس زئيراً — بل نفيراً عاماً — بل يكون صرخة تمزق مسامع من أصمه الطمع[1] » .

كانت لجمال الدين نظرية بلغت به درجة اليقين : أنه مادام الشرق شرقاً وأهله على ماهم عليه من الجمود والخمول والجهل وتفرق الكلمة وترك العمل بحكمة الدين ، وما دام الغرب غرباً وأهله فى تلك القوة من العلم والامتلاء بالمطامع ، فالحوادث والكوارث تتكرر متشابهة لا تختلف فى النتائج ، وإن اختلفت فإنما فى الأمكنة والأزمنة وأسماء الأشخاص ؛ ومن ثم كان برنامج العروة الوثقى[2] أنها « ستأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى كان يجب سلوكها لتدارك مافات والاحتراس من غوائل ما هو آت . ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشىء العلل التى ذهبت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه وعرة عميت فيها السبل واشتبهت فيها المضارب وتاه فيها الخريت وضل المرشد حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة

---

(١) العروة الوثقى ص ٣١ .
(٢) العروة الوثقى ص ٣٥ — ٧ .

والمدهشات القاتلة ! وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن الغباية بلغت حدها . وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم ، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح وأمام البصر ، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة . وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم — وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها — ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع كل الوسائط وسلوك المسالك إلى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى . ولا رغم للشرق أن يقف فى بدايته موقف الأوروبى فى نهايته ؛ بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها . وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ؛ فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف . وتنقب عن المسالك الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجر الغفلات ، وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ماداموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون . ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يسمهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت . وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والتنبه إلى السياسات التى تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين » .

وأنشئت لجمعية « العروة الوثقى » فروع فى البلدان المختلفة ، ربما هى التى كانت تنفق على المجلة عن طريق التبرعات ؛ فقد كانت الأعداد ترسل إلى المشتركين مجاناً « ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير ؛ ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده »(١) . وإلى جانب المجلة وجمعيتها استعمل جمال الدين رسلا متخفين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعليمات التى لا يستطيع نشرها فى الجريدة : فرسول إلى موسكو ، ورسول إلى الحجاز — حتى أنه أرسل مرة محمد عبده ، وهو محكوم عليه بالنفى ، إلى مصر وتونس(٢) . ونبهت المجلة إلى ضرورة تنقية الإسلام مما علق به من الشوائب وتأليف حكومة إسلامية واحدة رائدها التعاليم الإسلامية الحقة والعدل والشورى واختيار خير الناس لتولى الأمور ، ونفت أن هدف الجامعة الإسلامية يتنافى مع مصالح ومشاعر أهل الديانات الأخرى الذين يتفقون مع المسلمين فى مصالح بلادهم ويشاركونهم فى المنافع منذ أجيال طويلة . وناهضت الاحتلال فى الأقطار الإسلامية بكل قوة وألبت عليه فى غير هوادة ، وشغل هذا أكبر جزء منها ، واستعملت لهذا الغرض أشد أنواع التعبير وأعنف أساليب التهييج . واستغلت أخبار الثورة المهدية فى السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس : فالإنجليز الذين فرضوا نفوذهم على البلدان المختلفة باستغلال الفرقة الناشبة فيها ، ها هم يهزمون فى السودان ؛ فهونت « العروة الوثقى » من أمرهم ، وفضحت حقيقة تقربهم من المسلمين ، ونددت بالمثقفين الذين يصطنعون أساليب الغرب فى غير روية ودون مراعاة لظروف بلادهم ، مما يترتب عليه كونهم أحياناً — عن علم أو عن غير علم — أداة لتمكين المحتل . كما أسهبت فى إعطاء العظات الأخلاقية ، ضاربة على وتر النخوة والإباء ، منددة بأخلاق التواكل والجبن والضعف والخمول ، مهونة من أمر المحتل فى كل

---

(١) العروة الوثقى ص ٣٧ .
(٢) زعماء الإصلاح ص ٨٤ .

مكان ، ومجسمة انتصارات أتباع المهدى والايرلنديين . ومن هنا يكون أثرها فى العالم الإسلامى شبيهاً بأثر « اللواء » فى مصر فى أوائل القرن العشرين من حيث الضرب على وتر الإحساس القومى ومحاولة نفض الخمول واليأس اللذين أشاعتهما الهزائم المتلاحقة التى أصابت الإفريقيين والآسيويين نتيجة للتوسع الغربى .

كتبت « العروة الوثقى » فى الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية ؛ بل إنها كتبت فى شئون الهند الصينية التى كانت تواجه الاستعمار الفرنسى ، وعلقت على أخبار أمريكا واليابان ؛ ونظرت إلى كل ذلك فى ضوء السياسة الدولية العامة ، فالتفتت إلى الشعوب تحركها وتثير شعورها ، وإلى الحكومات المختلفة تبين لها أضرار الاحتلال . وتداولت أفكارها الجرائد الكبرى واهتمت بها الدوائر السياسية المشتغلة بشئون الشرق .

وأدركت انجلترا أثر الجريدة فى سياستها ونفوذها فى البلاد الشرقية ، فألح بعض محررى الجرائد الإنجليزية على حكومتهم أن تمنع دخولها إلى الهند ومصر ، بل تطرفوا فنصحوها بأن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها(١) . وبالفعل ضيق على الجريدة فى الهند ومصر ، فأثر ذلك فى كمية الأعداد الموزعة منها ، واضطر العاملون عليها إلى إيقافها . وبارح محمد عبده باريس إلى سوريا ؛ أما جمال الدين فبقى فى أوروبا متنقلا بين لندن وباريس حيث اتصل بالعلماء والكتاب ورجال السياسة ونشر مقالاته فى الجرائد الكبرى .

وفى عام ١٨٨٦ سافر إلى إيران بدعوة من الشاه ناصر الدين ، فاستغل الفرصة لكى يحاول أن يحدث فى إيران ما سبق أن أحدثه فى مصر من نهضة فكرية وإصلاحية ، وهنا أيضاً خلال النشاط الماسونى . وقد تجمع حوله الأمراء

---

(١) العروة الوثقى ، ص ٣٢٢ .

والشبان المتطلعون إلى الإصلاح والتحرر ، ولـكن تنكر له الشاه ؛ فغادر إيران إلى روسيا .

وربما كان اهتمام جمال الدين بالتوجه إلى روسيا راجعاً إلى وفرة عدد المسلمين فيها . ومن المعروف أن القيصر أذن له بطبع المصحف وبعض الـكتب الدينية للمسلمين الروس . كما أن روسيا كانت تناصب انجلترا العداء بصدد المسألة الشرقية والتوسع فى أواسط آسيا وأفغانستان وإيران ؛ ومن ثم ترحيب الدوائر الروسية به وسماحها له بنشر المقالات فى الصحف فى السياسة الأفغانية والإيرانية والعثمانية والروسية ونقد السياسة الإنجليزية . ولـكنه ما لبث أن اختلف مع القيصر حين أشار عليه بالحـكم النيابى ، فترك روسيا قاصداً باريس .

وفى ميونخ قابل الشـاه ناصر الدين (عام ١٨٨٩) الذى أغراه بالعودة إلى إيران . وهناك التف حوله صفوة الإيرانيين وأخذ يروج لإصـلاح الإدارة وإقامة العدل وتقنين القوانين والحـكم النيابى ، فبدت نهضة إصلاح ألبت عليه كبير الوزراء ، فحمل إلى الحدود وهو مريض . ومن البصرة أخذ يكتب إلى أنصاره يهيجهم ضد الشاه ، وكان من أثر ذلك فسخ العقـد الخاص باحتكار شركة انجليزية للتبغ فى إيران .

وفى عام ١٨٩٢ سافر إلى لنـدن وأقام بها ثمانية أشهر وجه فيها كل قوته إلى مهاجمة ناصر الدين . وكان من مؤسسى المجـلة الشهرية « ضياء الخافقين » التى كانت تصدر بالعربية والإنجليزية ، وكان يفضح فيها حكومة الشاه وسوء الإدارة فى إيران وانتشار الرشوة وتعذيب الأهالى فيها .

وأرسل إليه السلطان عبد الحميد يستدعيه إلى الآستانة . وقبل الدعوة بعد تردد ، ولـكن بعد أن أدرك أن بإمكانه تنسيق العمل مع السلطان من أجل الوحدة الإسلامية . وقال فى ذلك : « أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة

حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعنى إلى مد يدى له ، فبايعته بالخلافة والملك عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها . . . إلا بيقظة وانتباه عمومى وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم »[1] . أما السلطان ذاته فقد كان يخشى انضمام جمال الدين فى أوروبا إلى جمعية « تركيا الفتاة » الثورية ، خصوصاً وأن جمال الدين قد التقى فى باريس ببعض أعضاء الجمعية ، فأطلعوه على خططهم وما يحاولونه من إصلاح الدولة العثمانية ومقاومة الاستعمار الغربى ، فراقه منهم ذلك وشجعهم . كما أن الشاه ناصر الدين كان قد وسط السلطان عبد الحميد ليكف عنه أذى جمال الدين .

ووقع جمال الدين فى الفخ : إذ أرفق عبد الحميد دعوته إليه بأنه سيشاوره فى الإصلاح ، وحين دخل العاصمة التركية لم يستطع مبارحتها ، فقضى فيها مايزيد على أربع سنوات وضع أثناءها تحت الرقابة الصارمة ولم يجد متنفساً لأفكاره . على أنه فى بداية إقامته بالعاصمة التركية حادث السلطان فى أمر الحكم النيابى ، وأصدر جريدة « البيان » العربية التى كانت تسير على خطى « العروة الوثقى » . ولاقت الجريدة نجاحاً كبيراً فى الهند وتونس ومراكش والعراق وسوريا وغيرها من البلدان ، مما زاد فى هواجس السلطان منها — فأمر بتعطيلها . ثم قتل ناصر الدين ، وكان قاتله من تلامذة جمال الدين الذى يقال إنه قد استحسن هذه الفعلة ، مما أدى إلى الإمعان فى التضييق عليه . وعبثاً حاول الإفلات من الآستانة ؛ ولكن السلطان كان يخشى نشاطه فى الخارج ، فلم يسمح له بمبارحة تركيا . وانتهت حياته بداء السرطان فى ٩ مارس ١٨٩٧ .

*

---

(١) خاطرات جمال الدين ، ص ٦٧ .

قد لا تكون لجمال الدين فلسفة متكاملة مترابطة ؛ بل قد تكون بعض أفكاره متناقضة مع بعضها الآخر . ومع ذلك فإن الجانب البارز فى حياة جمال الدين تلك الحيوية الدافقة التى لا تخمد ، وتلك الإيجابية الفعالة التى أثرت فى الكثيرين ممن أتيح لهم الاتصال به والتلمذة عليه يديه. وأهم من هذا فهمه العميق لعصره وواقعيته الواضحة فى إدراك أسباب تفوق الغرب وتأخر الشرق الإسلامى .. وتمثله أبدا بقول النبى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . هدفه الأساسى إنهاض الشرق الإسلامى : فهو يعرف داءه ويشخص دواءه ؛ متقلباً بين الأمل واليأس بحسب الأحوال ، وإن كان فى شموله من التفاؤليين . جمع ما تفرق من الفكر ، ولم شعث الصور ، ونظر إلى الشرق وأهله ، ووجد أن أقتل أدوائه انقسام أهله ونشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف . وجعل علاجه جمع الكلمة ، بحيث يعمل كل أمير مسلم على ترقية شعبه ، ويقويه بالتحالف والاتحاد ، إلى أن ينضوى الجميع تحت راية الخلافة . وكان يرى تحقيق هذا الأمل بعيدا ، ولكنه ما كان يراه مستحيلا ؛ بل كان يستبشر بالضغط والعسف ويقول : « بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة ؛ والأزمة تلد الهمة » ، و « لا رجاء فى المستضعف إلا إذا يئس ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك . وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق — فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج »(١) .

وتحقيق هذا الهدف الأكبر يستلزم تنبيه الحكام من جهة ، واهتماما بتعليم الشعب من جهة أخرى . فالحاكم ذاته لا بد أن يحد من أوتوقراطيته ويلجأ إلى الحكم الشورى . والشعب لا بد أن يرجع إلى أحكام الدين الصحيحة ، فتغرس فى ناشئته مبادىء الحرية والوطنية والدين الصحيح فيرجعون إلى قواعده الأصلية ، ويأخذون بأحكامه ، وفى الوقت نفسه يسترشد العامة بمواعظه « الوافية بتطهير

---

(١) خاطرات جمال الدين ، ص ٨٥ و ص ١٣٨ .

القلوب وتهذيب الأخلاق ، و إيقاد ميزان الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة(١) » . وتقوم بذلك كله جمعيات يشرف عليها أناس « يأخذون على أنفسهم الأبية عهدا : ألا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثنى عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب — بل قوم يرون فى المناعب والمكارة بنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم وفى عكسه المغرم»(٢). والتعليم إنما يقوم على سلطان قوى قاهر « يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعـد نائباً عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة »(٣) .

فالدين إذن هو المقوم الأساسى الذى ترتكز عليه دعوة جمال الدين السياسية . وله فى تفسيره نظرات شاسعة لاتصل به إطلاقاً إلى حيز التعصب الذى حاربه بكل قوته ، خصوصاً وأنه لا يرى تعارضاً بين الأهداف القصوى للأديان الكبرى الثلاثة ؛ « فاذا نقص فى الواحدة شىء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية » ، ومن ثم يكون من الممكن اتحاد الأديان الثلاثة فى المبدأ والغاية ، فيخطو البشر نحو السلام خطوة كبيرة فى هذه الحياة القصيرة(٤) . فى الحرب لا يوجد — عنده — بين القاتل والمقتول « نزاع ولا خصام ، ولا حتى تعارف بالوجوه بغير صفوف القتال — يساقون (للمجازر) لإرادة ملك مسرف مغرور أو تهويل أفراد يقبضون على زمام الأحكام ويسوقون الخلق للقتل كالأنعام — يغتنمون فرصة الحرب ليكنزوا من ورائها الذهب والفضة »(٥) .

---

(١) العروة الوثقى ، ص ٨٥ .
(٢) خاطرات جمال الدين ، ص ١٣٧ .
(٣) العروة الوثقى ، ص ٥١ .
(٤) خاطرات جمال الدين ، ص٨٣ .
(٥) خاطرات جمال الدين ، ص ١٥٣ .

ولقد نفى عن الدين مسئولية حماقات رجال الدين ، ودعا إلى الرجوع إلى القرآن والبعد عن تفسيرات المفسرين التى أدت إلى الاختلاف والتفكك . ورأى أن الدين من المقومات الأساسية اللازمة للبشر الذين لا غناء لهم عن سلطتين ، زمنية وروحية : « كلتا السلطتين ترمى إلى غاية واحدة فى الجوهر والأصل . نعم — يمكن أن يطرأ على إحداهما خلل ليس فى أصل الوضع ؛ فهذا الخلل يجب العمل على إصلاحه والوقوف بوجه من أخل وإرغامه على الرجوع إلى الأصل » و « السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها إنما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر وصيانة حقوق العامة والخاصة وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة المطلقة — إلى آخر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة . أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل غر جاهل عات اكتنفه قوم من فاسدى الأخلاق مجهولى الأعراق يلعبون بالمسلط كيف يشاءون ثم يحتجون على الشعب بقولهم « مشيئة الملك قانون المملكة » — هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه وأن تقاومها بما لديها من قوة . لأن الحق فى هذا أن إرادة الشعب الغير المكره والغير مسلوب حريته قولا وعملا هى قانون ذلك الشعب المتبع والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له أميناً على تنفيذه . وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق شيعا وطوائف ، وتستحكم من أفراده محبة الذات والأنانية فتيجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا بلغة من عيش — فمثل هذا الشعب يكون كالأنعام السائمة أو أضل سبيلا ...

« كذلك القول فى السلطة الروحية — وأعنى بها ما لكل دين من النفوذ المعنوى على من يدينون به ؛ وهى فى بعض مواقفها أنفذ من قوة السلاطين ويقظة الشرطة وعدل الحاكم على منصة قضائه ، وأفعل مما ينفذه فى بعض الأحيان من القصاص على بينات قد تكون أخطأت مجرما وأصابت بريئا . إذا تمكن الدين بحقيقة من نفس وضلت عن مراقبة السلطان الزمنى ، فهناك

يفعل سلطان الروح و يردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه أحد ، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمنى أن يقتص منه . . . أما و إذا انحرفت وتحرفت هذه السلطة المعنوية عن مواضعها واختل جوهر وضعها الأصلى ، وجب عندئذ الوقوف تجاهها والعمل بكل قوة لإرجاعها لأصلها »(١) .

و إذا كان إصلاح السلطة الزمنية يستدعى قيام الحكم الشورى ، فإن إصلاح السلطة الدينية يستدعى الاهتمام بالتعليم ، الذى هو أيضا وسيلة لإثارة الوعى القومى : « فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم — والعكس بالعكس . . . أما الرجال والكهول ، ومن شب منهم عن دور العلم واستقام على عوج فيما تلقنه — هؤلاء تقومونهم بالمحاضرات وفتح نواد وطنية للاجتماع واختلاط أبناء الطوائف مع بعضهم وإرادة العمل للنهوض بالوطن عن طريق الخطب والمثال الحسن والتذكير والتحذير »(٢) . وهو ينادى بمحاربة رجال الدين « أولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة حانوت ، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية(٣) » — فما أسرع ما يتهمون من يقطع أرزاقهم بالكفر والجحود والمروق والخيانة ! ! !

والسلطة الزمنية لا بد أن يقوم عليها رجل قوى عادل يحكم الشرق بأهله ، لا عن طريق القوة المطلقة والاستبداد ؛ إذ لا عدل — فى رأيه — إلا عن طريق القوة المقيدة . ونفى جمال الدين أنه كان ينادى بالمستبد العادل ، إذ هذا من قبيل الجمع بين الأضداد ، فالعدل لا يجتمع والاستبداد ، وخير صفات الحاكم القوة والعدل : « ولا خير بالضعيف العادل ، كما أنه لا خير فى القوى الظالم(٤) » .

---

(١) خاطرات جمال الدين ، ص ٣٦ — ٣٨ .
(٢) خاطرات جمال الدين ، ص ١٤٢ .
(٣) نفس المرجع ، ٨٣ .
(٤) نفس المرجع ، ٩٠ .

والحرية والاستقلال — عنده — لا يوهبان عن طيب خاطر ، بل إن الأمم تحصل عليهما قوة واقتداراً،وإن يكن يفضل أن يتحول الحكم المطلق إلى الحكم النيابى عن طريق إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ؛ ومن ثم يتم التضامن وتتحقق سلامة المملكة ، وهنا يلتف الشعب حول العرش : فيكون للملك الدستورى عظمة الملك ، وعلى النواب أعباء المملكة ، وعليهم أن يذودوا عن سلامتها بالأموال والأرواح .

ومن رأيه أن الحكم الجمهورى حينئذ لا يصلح للشرق ولا لأهله[1] . فأهل الشرق حينئذ خاملون يخيم عليهم الوخم والجهل ، وقد انهارت فيه منظمات الطوائف التى كان يمكن أن تكون أساساً لقيام الحياة الديمقراطية الصحيحة — إذ الحياة النيابية دون تدريب أو تقدير للمسئولية لا تحقق الأغراض المرجوة منها ؛ بل قد تنقلب إلى عكس المقصود منها ، فتصبح مطية سهلة لذوى الأغراض من المهيجين والمشعوذين . ولقد أبدى جمال الدين تشاؤمه بهذا الصدد حين كان بمصر ، ولمس بنفسه خمول المجلس النيابى المقيد الذى أنشأه إسماعيل فى عام ١٨٦٦ ليشرك معه الأعيان فى أعبائه المالية . وكان رأيه فى الحياة النيابية فى الشرق متأثراً بهذه التجربة ، وقال فى ذلك : « فالقوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيق إلا إذا كانت من نفس الأمة . وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها ... والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً أو أميراً أو دخيلا بقوته على شعب يرضى عن طيب خاطر أن يبقى مالكاً اسماً ، وأمته هى المالكة فعلا لإدارة شئونها وزمام أمورها على مطلق المعنى ؛ . . . فمقدمات مجلس نيابى قوته المحدثة له خارجة من محيط الأمة ، والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجلس يعارضها — منافع متضادة وهدفان مختلفان . فمثل هذا المجلس

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

لا قيمة له ، وكما أنه لا يعيش طويلا ، كذلك لا يغنى عن الأمة فتيلا ... سترون أن الذى سيكون نائباً عن شعب لا أعدد مصائبه ولا أنواع رزاياه لفقدان حريته بكل معناها هو الذى كان آلة صماء بيد تلك القوة التى عملت على وصول وطنه ومواطنيه إلى ما وصلوا إليه . تعرفونه إذا شئتم أن تتفكروا قليلا ،وإن شئتم وصفه فأنا أقول لكم : نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم فى زمانكم — هو ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه ؛ ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ؛ ذلك الرجل لا يعرف لإيراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساطعة ؛ ذلك الرجل الذى يرى فى إرادة القوة الجائرة كل خير وحكمة ! ويرى فى كل دفاع عن وطنه ومناقشة للحساب قلة أدب وسوء تدبير ! وعدم حنكة !! وتهور ! ! وبالتالى يرى أن كل صفات العزة النفسية والمقومات الأهلية القومية مآلها الويل والثبور ، وكل ما يدعو إلى الذل واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الأمة من مجالى حكمته العصرية .... فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده[1]» .

ومع ذلك فقد تعدلت فكرة جمال الدين هذه حين لعب المجلس النيابى المصرى دوره القومى كاملا فى أواخر حكم إسماعيل حين تم التحالف بين الحاكم والبرلمان والحزب الوطنى ضد التدخل الأجنبى ؛ وإن يكن قد عاد إلى فكرته الأولى حين أدت الحياة النيابية — مع عوامل أخرى — إلى التعجيل بالاحتلال الأجنبى ، مما ينعكس أثره فى لعن محمد عبده للسياسة والساسة وانصرافه إلى مجال الإصلاح خلال تنوير الأذهان والتعليم . ومن ثم نظرة جمال الدين التشاؤمية إلى الأحزاب السياسية فى الشرق ، فهى — عنده — « نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء . نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر

---

(١) خاطرات جمال الدين ، ص ٤٧ — ٤٩ .

لتركها والكل لنا أعداء . والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية . يقوم الحزب بعنصر ضعيف أو بأفراد قلائل بينهم اللسن والمحنك ، ويعلنون تفانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستبداد ويسرون خدمة أنفسهم . فتتألف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة بسوق الضرورة وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة فى انقلاب الأمم من طور إلى طور . فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ورفاهاً وحرية واستقلالا ومساواة على أوسع شكل قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل فضلا عن القريب العاجل . فيوازن الحزب بكل معانى الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية ... الخ فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر ظهرت هنالك فى رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية ... فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد وتحصل بالنتيجة النفرة العامة — فنضطر حينئذ لترك الحزب وينفرط بالطبيعة عقده والكل له أعداء » .

وليس معنى ذلك أنه كان ينادى بإلغاء الأحزاب قاطبة ؛ بل إنه كان يرمى إلى التدرج فى مجال العمل السياسى بما يوائم طبيعه الأمة واستعدادتها : « فإن الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله ومرت عليه زلازل العسف والجور وأشكال الاستعباد حتى تأصلت فى نفوس أبنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده — إن هذا الشرق والشرق لايلبث طويلا حتى يهب يوماً من رقاده ويمزق ماتقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل فيأخذ فى إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها المستنكرة لاستعبادها . على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى لا مانع يمنع الشرق من الانخراط فى الحزب بعد الحزب ، ويقبل من . . [الوعود] ما يصدق ومالا يصدق ، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون للموت فى حياة وطنهم مغنما والحياة فى موت وطنهم مغرماً . حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من

داء الاستعباد ، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة ويصيرهم — بنعمة الإخاء والاتحاد والتعاون — أعزة ؛ بلادهم لهم ، وهم لبلادهم نعم الأمناء ، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ونصرة مظلومهم يأخذون مالهم من حق ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لايحزنون » (١) .

*

هذه هى الخطوط العريضة لأفكار جمال السياسية ؛ وهى الأفكار القائمة على نهضة الشرق ووسائلها . ومع ذلك فلم يفته ما طرأ على الغرب من تقدم فحاول استكناه هذه العوامل ومقارنتها بركود الشرق ؛ ولم يغفل عن الاتجاهات التى كانت قد أخذت تفعل فعلها فى الشرق والغرب . فهو لا يمانع فى تحرير المرأة ، وإن كان يحذر من جعل السفور « مطية للفجور » . ولكنه لم يكن يحبذ العمل للمرأة ، إذ مكانها الطبيعى — فى رأيه — هو بيتها ورسالتها الحقيقية تربية النشء . ثم إنه كان معجباً بالاشتراكية متوقعا أن تسود العالم « يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طينة واحدة وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع وليس بتاج أو إنتاج أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها أو بجيوش يحشدها ،وغير ذلك من عمل باطل ومجد زائل وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر »(٢) . وهو يرى أن السبب فى قيام الاشتراكية الغربية هو حاسة الانتقام من جور الحكام والأحكام وشراهة أصحاب المال والأعمال ، ومن ثم تطرف العمال فى التصدى للرأسمالية ، مما جعل أمر الغربيين — فى رأيه — فوضى . وحاول أن يدلل على أن الاشتراكية الأصيلة إنما هى فى الدين الإسلامى وفى عادات العرب وأخلاقهم قبل الإسلام حين كان النظام القبلى مبنياً على التعاون ، ثم ماجاء به الإسلام من زكاة وصدقات وما دعا إليه من التآخى

---

(١) خاطرات جمال الدين ، ٨٥ — ٨٧ .
(٢) خاطرات جمال الدين ، ص ١١٢ .

والعدل والنزاهة . وضرب بعدالة عمر ونزاهته وحزمه وتقشفه مثلا أعلى لما يمكن أن يكون عليه أمر الحكام المسلمين . حتى إذا ما اتسعت الفتوح وتدفقت على المسلمين الثروات ، وأخـذت تظهر أعراض طبقة مميزة جديدة من الحكام ومن إليهم ، قام أبو ذر الغفارى ينذر عثمان ومعاوية ؛ وكانت الفتنة الـكبرى التى قسمت المسلمين أحزاباً وشيعاً .

جمال الدين إذاً يعيد إلى الأذهان ذكرى عمالقة الفـكر الإسلامى فى عصره الذهبى بعـد كل الذى كان فى أطوار الركود من كهانات وخزعبلات . ولقد أثمرت دعوته حيثما حل لأنه كان يضم إلى ثورية التفـكير وصفائه قدرة خارقة على الجذب والإقناع . ولقد حمل تلامذته فى شتى بقاع العالم الإسلامى لواء النهضة الفـكرية والسياسية التى حركته وعملت على إلحاقه بالركب العالمى المتطور ، وعلى نفض آثار الضعف عنه ، والتصدى للتسلط الأمبريالى الغربى .

أحمد عبد الرحيم مصطفى